شَعْبٌ في زنزانة

أحمد عمر

لا ريب أنّ جو بايدن، الرئيس الأميركي رقم 47، قد أقمر ليله الدجوجي وبلغ أرذل العُمْر، وقد سخر منه ترامب وقلّد حركاته وسكناته غير مرّة، واضطرت الإدارة الأميركية لتوكيل موظّف به، يلمُّ كبرته ويستر عورته، من غير الحرس الرئاسي، ويدلّه على الاتجاهات، وينجده في ساعة العسرة، وقد آن له أن يترجّل، لكنّ الولاية حلوة الرضاع ومُرّة الفطام.

ربما يئس بايدن من فوزه وتخلّى عن فكرة الترشّح لدورة جديدة، لذا يلقي بثقله كلّه على نجاح الحرب الإسرائيلية على غزّة، وقد تراجع أيضاً عن ورقته في مفاوضات تبادل الأسرى. الحاصل أنّهم يستدلّون على خَرَفِه بأقوال له وتصرّفات، نحو خلطه بين اليمين واليسار، وبين الرئيس السيسي والرئيس المكسيكي، وبين رفح وحيفا «وهبي»، وهو يمشي مثل رجل آلي أو مثل فورست كامب في طفولته. لكنّ جورج بوش، في شبابه، لم يكن أقلّ خرفاً منه، ونتذكّر أنّه كان يخلط بين الأبواب، لكنّه كان يحتال على نسيانه أو جهله بالأسماء فيبدل بها الصفات بقوله: «ذلك الرئيس ذو الشارب السميك»، وأزعم أنّ العقل الأميركي عقل مركزي، أبيض وأسود، ولاء وبراء (بلغة الفقه)، الغرور خَرَف، والغطرسة هرف.

يمكن أن نذكر فيلم «كامب أشعة راي» (حبذا لو كان اسم الفيلم قصّة إيما وأمير، على معهود قصص الحبّ مثل: روميو وجولييت وقيس وليلى) مثالاً على خَرَفِ العمى والغطرسة، ودوام الجهل، فالسينما الأميركية نمطيّة مثل الهندية البوليوودية، غير أنّها تستبدل الأغاني الاستعراضية بالعراك والملاكمات.

يروي فيلم «الأشعة» قصّة أميركيةٍ بيضاءَ تقضي خدمتها العسكرية في مُعتقل أشعة إكس في «غوانتانامو» (في أجهزة الأشعة ترى الناس أطيافاً بلا ملامح وبلا علامات). واجبها العسكري المقدّس هو منع المُعْتَقَلين من الانتحار، والمسلمون قلّما ينتحرون، والمُعتقَل، على سوئه، أفضل من المعتقلات العربية المعاصرة، فليس فيه تشبيح وتعليق ودولاب وبساط ريح. تَعْطِفُ على أحد المُعتقَلين، صفته معتقل وليس سجيناً، حتى لا تصير له حقوق معاهدة جنيف، والأميركيون ماهرون في تحريف الكلام عن مواضعه، فالزنزانة اسمها «وحدة»، والهندي الذي أُبيد عرقه اسمه «الأميركي الأول»، وما يجري في غزّة ليس إبادة، وضحاياها خسائر جانبية، لكنّ صنّاع الفيلم والسياسة مصابون بالخرف أو هم يقومون بعملهم على وجهه الذي لم يتغير منذ قرن.

الفيلم خرفان، يروي قصّة مُتخيّلة لحبّ من طرف واحد. مُجنَّدةٌ اسمها إيما تعطف على مُعتقَل اسمه أمير (لهجته فارسية، وممثل الدور إيراني) بعد خصومة، لم يكن بين مُعتقَلي غوانتانامو إيرانيون، لكن يبدو أنّ صنّاع الفيلم لا يريدون إغضاب الحلفاء الإماراتيين والسعوديين. أمير غاضب دوماً، شتّام، سبّاب (فكّرت مرّة في أن أعد المرّات التي يشتم فيها الأميركي في الفيلم الواحد). تقترح إيما الحلوة عليه أن يُرَوّح عن نفسه بقراءة القرآن، فيقول غاضباً، بعد أن يلوّثها بالقذارة (الشيت)، إنّه قرأه كثيراً، ويريد أن يقرأ الجزء السادس من «هاري بوتر»، الذي تبخل به إدارة السجن عليه. لا يَكفُّ عاشق «هاري بوتر» عن التحرّش بالمجنّدة الشقراء، لكنّها تقع فيه حبّه، شفقة به، فتدمع عيناها بعد أن ترى صوره وهو مدمى من التعذيب في مصنّفه وسجلّاته في المعتقل، يهددها مرّة مُخرجاً نصلاً من بين دفّتي مصحف (المصحف مصدر الإرهاب في الفيلم) بأن يقتل نفسَه، لكنّها تمدّ يدها له، فيرعوي ويكفّ ويبكي، ويُسلّمها النصل. تنتهي خدمتها، ويفاجأ بأنّها أوصَتْ له بالجزء السادس من «هاري بوتر»، بعد رحيلها، فيجلس سعيداً في «الخلية» ليقضي نهمته منها. ألقت الطائرات بعشرات الآلاف من وجبات حسنة التغليف وكثيرة العلب، وبألعاب أطفال، وبوجبات من المطّاط، قَتَلَ بعضها المُغاثين، لكن لم يكن فيها عوازل جنسية أو علكة تصريف الغضب أو روايات هاري بوتر.

من شَقيَ بمحبّته استمرّ مَعه الشقاء

عبد الحكيم حيدر

شقاء المحبّة، حتى وإن كانت رومانتيكية، يستمرّ معنا، حتى وإن جلسنا في آخر أعمارنا بجوار حديقة ورد صغيرة، وليس لنا ولا علينا، كأصفياءَ خرجوا من بيْن أنيابها صالحين. هذا الصلاح الهَشُّ دائماً تفضحه تلك الأحلام التي تُباغِتُنا، فنرى العذاب، عذابات القلب فيما مضى، كما هي، وكأنّها لم تفارق عقب باب أحلامنا.

كنتُ أظنّ أنّ عُمْرَ المَودّة، مودّتنا، قد يصير باهتاً مع الأيام، وخاصة حينما تقسو تلك الأيام على قلوبنا وتصير المودّة شحيحة جدّاً في جنبات العالم، ويَصِلُ شُحّها حتى القرى والنجوع والأغنيات، حتى تصل إلى الحقول التي كانت سعيدة وخضراء.

هذا القلب الصغير الذي في حجم قبضة يد، كيف مع الذاكرة وفي معيتها! يعيد لنا تلك الهالات الجميلة التي حلّقنا بها من سنوات وراء عصافير أحلامنا، الأحلام تلك التي تأتينا لماماً، تؤكّد لي أنّ عُمْرَ المُحبّ في الشقاء لا ينتهي، حتى وإن أثمرت حديقته المُجتَمَعيّة، حديقة الإنجازات، وحقّقت ورداً وياسميناً وإسمنتاً وكُتُباً، ستكون تلك المعارف مُتْعِبة في آخر العُمْر، وتظلّ شوكةٌ ما في شغاف القلب، شوكةٌ تهدهده وترعاه رغم ألَمِهَا، شوكةٌ صاحبته وتُصاحبه، ترعى أحلامه من بعيد، وكأنّها أخته التي ماتت ولم يتذكّر من ملامحها أيّ شيء، شوكةٌ كأنّها أخته التي تساندت على الحوائط قبل أن تُكمِل السنة بأيام، حتى تجلس على رأس الدرب وحيدة، لأنّني في حجر أمّي وهي مع قربة اللبن ابنة شهرين إلا قليلاً، شوكةٌ كأنّها أخته وقد أوصته بكلّ الحمامات التي تشبه حُزْنَها تماماً، وهي جالسةٌ وحيدةٌ على الجسر، هي ليلى، وهي سعاد، وهي هناء، هي تلك الشوكةُ التي حَمَتْه وحَرَسَتْه من المذلّة، مذلّة قلبه.

هذه الشوكة الليّنة على القلب تكبر الآن معه في القلب، في آخر العُمْر، وتصير حديقة تَحْميه، والحديقة تُطلّ عليه في الأحلام في معيّة الذاكرة، هي شوكةٌ ما عالقة بوردة حياته، وكلّ يوم تقول له: «إنّ بئرك الأولى مازالت تصدّق هواجسك القديمة» وتؤمن بها أشد إيمان، وخاصة هواجسه عن أولئك الذين لم يخجلْ في يوم أن يميل على وردة ويسرقها من حديقة، وتظلّ الوردة في جيبه ويعود بها خجلان من الجامعة، ويركنها فوق غطاء الزير الخشبي، فتبتسم أمُّه، ويظهر من ابتسامتها الجير ما بين أسنانها، وهو يسكت ويحرث تلك الأحلام، ويسقيها بصمته وقسوته وحكمته. تلك الشوكةُ التي استطاعت أن تحني قامته قليلاً من شدّة تمسّكه بحكمة التراب، وبأنّ قانون الورد فقط يَخِرّ من أصابع «الجناينية» عند أوّل خجل. شوكةٌ ما صاحبه صحبة قلبه تماماً، وصحبة ذاكرته وحنو أحلامه عليه، شوكةٌ علّمته الكلام، وعلّمته الخجل، وعلّمته الأدب، وعلّمته القسوة على قلبه أيضاً، كي يمشي هكذا وحيداً.

يتذكّر الآن في أحلامه كالحديد تماماً وأشد، يتذكّر هواجسه ومحبّته القديمة لأولئك الذين كانوا معه أو تَخيّلَ أنّهم معه أو له أو أنّ قلوبهم له أو قريبة جدّاً من قلبه.

لم أنتبه ساعتها إلى حرارة الغناء، وعطف هذا الغناء على خَجَلِي وقسوتي، ولم أسألها لماذا غنّت لي أصلاً، ثم مشت بعيداً وتركتني أقسو على نفسي كلّ يوم، كي أراها اليوم في كامل بهجتها تضحك معي بعدما غابت هناء، وإن كانت قد حكت لها عن مشاغلها، كانت وهي تحكي وكأنّنا هناك من خمسين سنة ندرس في الجامعة، وننتظر الشمس قبل أن يأتي دكتور عبد السلام بحقيبته «السامسونيت» في كامل أدبه وهندامه، هي سعاد برائحة «بلوفرها»، وهي هناء برقّة قلبها وسؤالها الدائم عني، أنا الخجول. طوت سعاد المسافة وجاءت، كيف أزاحت خمسين سنة إلا قليلاً وقد جاءت بنفس فستانها الأوّل؟ ... رغم أنّها كبرت وباتت تغطّي رأسها بـ«الإيشارب»، وقد منحتني «بالونة» بيضاء في عيد ميلاد هناء من ثلاث سنوات، ورَكَنْتُ الـ«بالونة» بجوار الشاي الذي أصرّت على إعداده، بعدما مَسَحَتْ عن عينيها دمعات ما بسبب قسوة صديق، بعد أن كبرت وصار دلالها في دمعها، فحكيت لها حكاية «البلوفر»، فضحكت وكركر قلبها كطفل في الحفل.

قلبي هذا يرعى شوكتي ويسقيها، والشوكة في كلّ يوم تكبر معي، وتصير أكثر حناناً ورفقاً بي، أنا الخجول في أيّ حفل.

انتفاضة السويداء واختبار السلطة البديلة

أيمن الشوفي

في الثُلث الأخير من شهر أغسطس/ آب الماضي، استجاب عشرات فقط من الأهالي لتنفيذ وقفة احتجاجيّة داخل ساحة السير (لاحقاً ستُعرف باسم ساحة الكرامة) وسط مدينة السويداء في جنوب سورية، حينها كان الهدف المنظور لتلك الوقفة أن يرميَ المحتجّون سُخطهم بوجه السلطة الحاكمة، بعدما رفعت أسعار حوامل الطاقة والمشتقات النفطيّة (ستعود وتكرّر ذلك مرّاتٍ عديدة خلال العام الماضي، وهذا العام أيضاً)، ثمَّ استبدَّ، وخلال الأيام الأولى من عمر تلك الوقفة تخيّلُ سياسيّ اعتيادي مفاده أنّ ذاك الاحتجاج لن تغذّيه سوى أعداد محدودة من المتظاهرين أسوةً بسوابقه من احتجاجات محلية كانت تظهر مترددةً في تلك الجغرافية ذات الغالبية الدرزيّة، وهذا الذي لم يحدث، إذ سرعان ما استجاب لها الريف، وصار أبناؤه هم الشريان الرئيسي الذي رفد تلك الوقفة، ونقلها خلال أقل من شهر واحد إلى خانة الانتفاضة الشعبية، وهي مستمرّة، وإن على نحوٍ أقل جموحاً من السابق.

لكن انعطافاتٍ عديدة شابت تلك الاستمرارية، جعلت من الانتفاضة تخضع لتبدّلات ملحوظة في الشكل والمضمون، بعدما أحاط بها السياسيون منذ نهاية أسبوعها الثالث، وشرعوا سباقاً فيما بينهم لاحتلال مساحاتٍ مؤثرة داخلها، فكثرت الأجسام السياسيّة التي نشأت في محيطها ابتداءً بالهيئة السياسية للعمل الوطني ثم الكتلة الوطنية ووصولاً إلى تيار سورية الفيدرالي، من دون أن يكون بمقدورها جميعاً أن تُقدّم ما يمكن استثماره براغماتيّاً داخل أروقة انتفاضة السويداء، والتي أخذت تتحوّل تدريجياً إلى وقفة احتجاجيّة تصل ذروتها في يوم الجمعة فقط من كلّ أسبوع، وذلك بفعل التشظّي السياسي الحاصل، وقد أحاطها بدايةً، ثم لوى عنقها بقسوة، فتلاشت الوقفات الاحتجاجية المسائية التي ظهرت في الريف، وبالتحديد في نقاط الحراك الفاعلة بعد أشهر قليلة على بدء انتفاضة السويداء، وتراجع الزخم الشعبي الذي صاغ تلك الانتفاضة اعتباراً من أواخر خريف العام الماضي، ربما مردُّ ذلك يكمنُ في الإدراك العميق الذي هيمن على فئات شعبية عديدة صنعت انتفاضة السويداء، والذي كان يَسْهُلُ أن تتهجّاه أبجدياً، بغياب الجدوى السياسية من مزاولة نزولهم إلى الشارع بصورةٍ يوميّة، أو يوم الجمعة على الأقل، ولم يستطع الشكل التنظيمي للحراك حين تطوّر من البداهة والعفويّة، إلى اللجان المتخصصة، من تعويض هذا الفاقد الحيوي، إذ كان همّهُ الاحتفاء بالجانب السينوغرافي البصري لمظاهرات يوم الجمعة بصورة خاصة، وبالرغم من المبادرات العديدة، ذات الطابع الاستعراضي الاحتفالي، والتي ظهرت داخل ساحة التظاهر، من إعلان خطوبة ناشطين مثلاً، إلى تنظيم حفلة زفاف في مرّةٍ ثانية، أو حتى الاحتفال بمواليدَ جدد، أو إطلاق أغانٍ خاصة بالحراك، أو الدخول الكرنفالي للمتظاهرين في مرّات عديدة إلى الساحة، كلُّ ذلك بدا عاجزاً عن استعادة من هجروا فكرة المواظبة على النزول إلى الشارع.

ولعل السجال المديد الذي التحقَ بمسألة رفع علم الاستقلال، أو علم الثورة، (يسمّى أيضاً العلم الأخضر) بكثافة عالية منذ بداية العام الحالي جاء في فترة تراجع المشاركة الشعبية بالحراك، واعتراض كثيرين عليه، وتعليق مشاركتهم بسببه، ومعظمهم كان قد فقد أبناءه تحت تلك الراية التي رفعتها أيضاً التنظيمات الإسلامية المسلّحة، خلال مواسم اشتباكاتها الطويلة مع جيش النظام السوري، وحلفائه.

في المقابل، كان من الهيّن التشكيك بمرجعيّة انتفاضة السويداء خلال أشهرها الأولى، حين كانت تكتفي فقط برفع العلم الرسمي للطائفة الدرزيّة بألوانه الخمسة المعروفة، ورايات عديدة (تسمّى بيارق) تمثّل أسماء القرى، والعائلات المشاركة في مظاهراتها اليوميّة، فكان الحراك وفي وقتٍ مبكّر منه مضطراً لاعتناق «المذهب التبريريّ» كمستندٍ قيّم الدلالة في الخطاب السياسي الموجّه إلى خارج السويداء، وهذا قاد الحراك، والمشرفين عليه، وفي وقت مبكّرٍ أيضاً إلى المبالغة في قبول الخضوع إلى فحص دماء الانتفاضة، لأجل مصادقة الخارج عليها، وتبيان زمرتها، وما إن كانت وطنية، أم طائفيّة، وهذا صَادَرَ الكثير من بديهيّات الحراك ذي الطابع الشعبيّ في أوّله، ونقله إلى سراديب السياسة بكل تلوّناتها البراغماتيّة المظلّلة، والموحلة.

> يَسهُل تلمّس تشكّل ما يشبه «السلطة البديلة» لسلطة النظام، وإنْ لا تزال تقبع ضمن أطوارٍ جنينيّة تجريبيّة

قاد ذاك السجال ومتمّماته السلوكيّة داخل ساحة التظاهر المشرفين على تسيير شؤون المظاهرات إلى منع رفع أيّ من العلمين من قبل المتظاهرين، ولا سيما في تظاهرة يوم الجمعة، والاكتفاء بتثبيت العلمين إلى جوار بعضهما على المنصة الرئيسية داخل الساحة. وبالرغم من ذلك لم يتحسّن واقع الإقبال الشعبيّ على المشاركة في مظاهرة يوم الجمعة المركزيّة منذ الشروع بتطبيق ذلك القرار قبل نحو شهرين.

في المقابل، يَسهُل تلمّس تشكّل ما يشبه «السلطة البديلة» لسلطة النظام، وإن لا تزال تقبع ضمن أطوار جنينيّة تجريبيّة، بعدما تمكّنت العديد من نقاط الحراك في قرى السويداء من إغلاق مقرّات فرق حزب البعث فيها، وكذلك فعل المتظاهرون في المدينة، ثمّ تمّ استبدال هويّة تلك الأماكن المستولى عليها من قبل الحراك السياسي، وصارت مقرّاتٍ لاجتماعاتهم يبحثون فيها شؤون التظاهر، والشأن العام، لكن ما يخرجون به من اجتماعاتهم تلك، لا يمتلك حتى اليوم الثقل المناسب الذي يخوّله ليكون قراراً ذا صفةٍ مرجعيّة عامة، أو يجد أدوات ملائمة تُجيز تنفيذه.

أيضاً، يحاول الشيخ حكمت الهجري، الرئيس الروحي لطائفة الموحدين الدروز في السويداء، أن يجد انسجاماً سياسياً بين كلّ الأحزاب والكتل والتيارات السياسية التي استوطنت إلى جوار مساحة التظاهر منذ تبلورها، بغرض استيلاد جسم سياسي تستسيغه كلّ المرجعيات السياسية، أو أغلبها على الأقل، وكذلك يريد بلوغ الحدّ الملائم من الانسجام العسكري بين الفصائل المحليّة المسلحّة التي لا تدين بولائها إلى الأجهزة الأمنية السورية، أو المليشيات الإيرانية، والدفع بها لأجل تشكيل جسم عسكري واحد، له اسم، ومرجعية واحدة، وبالرغم من أنه لم يحقق نتائجَ هامة على صعيد الملفّين السياسي والعسكري في السويداء المنتفضة ضد نظام بشّار الأسد، لكنه يسعى جاداً لأجل بلوغ تلك الغاية، إذ ثمة معوقات موضوعية وذاتية تُصعّب الأمر عليه، ولا يمكن نكرانها، مثل تعدد مكونات المشهد السياسي في السويداء، وارتباط أغلب تلك المكونات بمرجعيات خارج المحافظة. وينطبق هذا الأمر على الفصائل المحلية المسلّحة، ما يزيد من صعوبة استمالتها نحو نقطة واحدة، لكن هذه الجهود المبذولة لديها كلّ مقاربات الجنوح نحو تشكيل سلطة بديلة تكون خارج منظومة سلطة بشار الأسد الرسمية، وهي حالياً سلطة ناشئة تتشكل ببطء، وبصورة غير منظورة أو محسوسةِ التجلّيات على الأرض، ويحتاج انتقالها إلى مستوىً أكثر نضجا المزيد من الوقت والاختبار، حتى تصل إلى المستوى المطلوب من التجذّر في السياق الاجتماعي والسياسيّ العام.

(كاتب سوري)

كاريكاتير **عماد حجاج**

جنون المحتلّ وخياره الشمشونيّ

جورج كعدي

وَصْفُ المُحتلّ الصهيونيّ بالجنون ليس لي، بل للأكاديميّ اليهوديّ والمناهض للصهيونية نورمان فنكلستين (وليس فنكلشتاين كما يلفظ بعضهم اسمه). ففي مقال حديث له، تحت عنوان «شمشون وكاساندرا»، يقول بالفم الملآن، وبوضوح تام: «إسرائيل دولة مجنونة»، نافياً أنّها مجرّد «دولة مارقة» أو غير ذلك، معتبراً أنّ قيادات الكيان أو نخبته السياسية ليست وحدها مجنونة بل تعكس جنون المجتمع الإسرائيليّ كلّه، الذي تدعم أغلبيّته الساحقة حرب الإبادة الجماعية في غزّة، ولم ترفض الخدمة العسكرية سوى حفنة من الإسرائيليين، بحسب تقديره، واصفاً استنكاف القلة بأنّه «مجرّد قفزة برغوث». ويصف الواقع الإسرائيليّ الراهن على النحو الآتي: «في أحد القطبين، يقف الواقعيّون المعتوهون، وفي القطب الآخر المجانين المطلقون»، متسائلاً عمّا إذا كان نتنياهو، مثل شمشون، سيهدم الهيكل فوق قومه وأعدائه معاً. الواقعيّون المعتوهون يعتقدون ألا حلّ آخر سوى الحرب، وأنّ الفوز يعني شيئاً ما «رغم أنّهم لم يقولوا لنا أبداً ما هو هذا الشيء»، منتقداً زميله بيني موريس «المهذّب ورجل الفكر والعلماني والمجنون»، بحسب وصفه، الذي لم يأنفْ، حتى هُوَ، من الانضمام إلى مهاجمي إيران، داعياً واشنطن إلى الارتقاء إلى مستوى الحدث والمشاركة في ضرب إيران «أو تفعل إسرائيل ذلك وحدها وتقصفها بالأسلحة النووية» (!) أمّا المجانين المطلقون «مكتملو النموّ»، وفق تعبير فنكلستين، فلا تفصلهم إلّا خطوة واحدة عن عتبة هذا الفعل، معتبراً أنّه «الخطر الأعظم الذي يواجه إسرائيل اليوم»، ملاحظاً، مثل نعوم تشومسكي قبل أربعة عقود، أنّها «النسخة الجماعية» من انتقام شمشون؛ نتنياهو حالياً، على طريقة «دعوني أهلك مع الفلسطينيين»، مثلما فعل شمشون القديم، مدمراً الهيكل فوق رأسه ورؤوس الأعداء.

نتنياهو ومجلسه الإباديّ، والأغلبية الشعبية المؤيدة لهذا النهج التدميريّ، هم في حال من الجنون الجماعيّ الفعليّ الذي يفكّر «سنقتل الأمم حولنا وندفنها وسنموت نحن أيضاً معها» أو يتظاهرون، على الأقلّ، بالجنون لإخافة الأعداء والحلفاء على حد سواء.

عبّر عن هذا الجنون الإسرائيليّ القائم ممثل «إسرائيل»، جلعاد أردان، في الجلسة الطارئة لمجلس الأمن في 14 إبريل/ نيسان الحالي، مُظهراً مدى الجنون الذي وصلت إليه دولته، حين قارن بين النظام الإسلامي في إيران والرايخ الثالث لأدولف هتلر، قائلاً: «مثل النظام النازي تماماً، يزرع نظام آية الله الدمار في كل مكان (...) لقد شهد العالم لسنوات صعود هذا الرايخ الإسلامي الشيعي، ولكن مثلما حدث خلال صعود النازية، ظلّ العالم صامتاً»، مردفاً: «إنّ طموحات إيران في الهيمنة على العالم يجب أن تتوقف قبل أن تدفع العالم إلى نقطة لا عودة عن حرب إقليمية قد ترتقي إلى حرب عالمية (...) إذا لم يكبح العالم جماح إيران لن يكون أمام إسرائيل ملاذ سوى تحمّل هذا العبء الساحق منفردة». ويسترسل أردان هذا، في ديماغوجيته الصهيونية المعهودة، قائلاً إنّ «إسرائيل» اعترضت المُسيَّرات الإيرانية فوق المسجد الأقصى لحمايته. يا إلهي إلى أيّ حدّ يمكن أن يصل النفاق! هذا النوع من «الجنون الموثّق»، سبق أن اعتمده نتنياهو نفسه، يوم رفع في الأمم المتحدة رسماً يشبه الرسوم المتحركة عن القنبلة النووية الإيرانية أو يوم زَعَمَ، في الأمس غير البعيد، أنّ مفتي القدس محمد أمين الحسيني هو من «اقترح» على هتلر «الحلّ النهائيّ» بإبادة اليهود. مرّة أخرى يا لهول النفاق!

ذرائع السابع من أكتوبر (2023)، والردّ الإيراني في الأمس، فرصة لمجانين الكيان الصهيوني لأن يُنهوا التحدّي الثلاثي الذي يمنع هيمنتهم الإقليمية: تدمير غزّة، وحزب الله، وإيران. ويمكنهم لاحقاً تنفيذ التطهير العرقي والترحيل في الضفّة الغربية. أمّا العاقلون المعتوهون أو المجانين فغير قادرين هم أيضاً على وقف هذا الانزلاق الصهيوني نحو الهاوية. فحتى مع تصاعد الكوارث العسكرية في جيش الكيان لا يني الجميع مصفّقاً لنتنياهو، وعصابة مجانينه. مثل هذا حدث قبل هزيمة هتلر ومشروعه النازي بأسابيع وأيام معدودة. في النُظم الفاشية يبقى الزعيم زعيماً حتى هزيمته أو موته. النظم الفاشيّة محكومة بالنصر أو بالهزيمة، وبنزعَتَي الجنون والانتحار. فقدت «إسرائيل» أهمّ أسلحتها وأمضاها منذ تأسيسها كياناً محتلّاً إحلاليّاً عنصريّاً مجرماً؛ سلاح التخويف والترهيب على صعيدي المنطقة والعالم. سقطت الهالة؛ الهيبة؛ الرهبة... تهاوت إلى مصاف الدول العاديّة القابلة لأن تُهزم في الحروب، ولأن تَخْتَبر هي نفسها الرعب والخوف وتهديد المصير، لذا لم يبقَ لها في جولتها الوجودية الأخيرة سوى ادّعاء الجنون أو الإصابة الفعليّة به.

> قيادات الكيان أو نخبته السياسية ليست وحدها مجنونة بل تعكس جنون المجتمع الإسرائيليّ كلّه

(أستاذ جامعي لبناني)

إيران وإسرائيل... حرب الأصالة في حرب الوكالة

دلال البزري

ما بين مطلع إبريل/ نيسان الحالي وأوسطه، ومع استمرار الحرب على قطاع غزّة والضفّة الغربية، عشنا ترقّباً من نوع آخر: هل ستردّ إسرائيل على إيران؟ ... انقضى أسبوعان قبل تبلور الرهانات، كلّ على قياس أصحابها؛ مع إسرائيل أو مع إيران، ضدّ إسرائيل أو ضدّ إيران. المهم، أنّ ما كانت تُسمّى «حرب الظلّ» انقشعت وتقدّم أبطالها الحقيقيون خشبة المسرح.

احتلت «حرب الظلّ» دوراً ثانوياً في الحرب، مع أنّها كانت هنا، قريبة من الأراضي السورية، وعمرها سبعة أعوام؛ تقصف إسرائيل، بفضل تفاهمات خصوصاً مع الروس؛ منافسي إيران، المطارات العسكرية والثكنات ومخازن الصواريخ والمُسيّرات التابعة للحرس الثوري الإيراني، وللمليشيات المنضوية تحت قيادته، وفي مقدمها حزب الله. وبعد «طوفان الأقصى»، شنّت إسرائيل 40 هجوماً على تلك المواقع، اغتالت خلالها مسؤولين في الحرس الثوري ومليشياته. جديدها أخيراً كان في القنصلية الإيرانية. لم تتحمّل إيران هذا الاعتداء الإضافي، وقرّرت أن تردّ على إسرائيل بصواريخها ومُسيّراتها. انتهى الردّ بما يشبه «التعادل»، بانتظار ردّ إسرائيلي جاء سريعاً وضعيفاً، والبقية في فصل قادم، إنّ لم يكن هذا الردّ هو الخاتمة. المقصود بـ«التعادل» أنّ الجانبين نظرا إلى العملية على أنّها انتصار استراتيجي لكلّ منهما. هلّل الإيرانيون وجماعة الممانعة لانتصار جديد على إسرائيل، وبنيامين نتنياهو أعلن أنّ النصر قاب قوسين أو أدنى. والطرفان على حقّ؛ إيران قامت بسابقة لم ينافسها فيها إلا صدّام حسين بصواريخه منذ أكثر من ثلاثة عقود، احتجاجاً على «التدخّل الأميركي في الكويت»، التي احتلها صدّام حسين بصفتها «المحافظة العراقية رقم 19». وها هي إيران تعيد الكرّة ثانيةً بظروف صعودها قوةً إقليميةً، كما اشتهى صدّام لنفسه. وثمّة ملامح برزت على ساحة المعركة، جديدة بوضوحها، قديمة بجذورها، وبعيدة عن التَمْتَمَة التي رافقت «حرب الظلّ» بين إيران وإسرائيل. إذ توارت «وحدة الساحات» التي ردّدها دعاة الممانعة مع كلّ صغيرة وكبيرة رافقت اندلاع «الطوفان»، وعلى هذا المسرح الجديد، فُتِحت جبهة منفصلة، وتوارت المليشيات وتضاءل دورها، وسط غبار المبارزة الإيرانية الإسرائيلية، المقلقة، والحاسمة لمستقبل الفلسطينيين أو اللبنانيين أو السوريين، وربما مستقبل العرب جميعهم.

وقفت إيران أمام الإبادة والتجويع والتهجير بحقّ أهل غزّة، كلّ هذه الأشهر، تصرخ بـ«وحدة الساحات». لم تتألم طهران، ولم تردّ، ولم تغامر، إلا بعد اغتيال قيادييها في القنصلية الإيرانية في دمشق، مما يعني أن نكبة غزّة، ليست شيئاً يذكر أمام هيبة إيران الإقليمية، وحياة قادتها. لم تردّ حتى الجميل للفلسطينيين، بعدما استثمرت في قضيتهم حتى النخاع لتكريس هيبتها. المنافقون ليسوا إيرانيين فقط، إنما أميركيون وغربيون أيضاً، الذين كان باستطاعتهم أن ينقذوا أهل غزّة من جحيمهم، لكنّهم ذرفوا الدموع بسخاء، وأنقذوا إسرائيل من جحيم الصواريخ الإيرانية. هل يمكننا تصور حال دولة الاحتلال الإسرائيلي لو لم تتدخّل أسلحتهم وذكاؤهم الاصطناعي دفاعاً عنها؟ ... الخبثُ لا يتوقّف هنا، فـ«حرب الظلّ»، المعروفة للجميع، دموية، بالغَ فيها الإسرائيليون، وتحدّوا خلالها القوانين والأعراف الدولية، لكنّ الجميع فضّل أن تظلّ حرباً في الظلّ من دون حسابات استراتيجية مكشوفة، وبينما تفرّج الغرب على مليشيات إيرانية يقودها الحرس الثوري، تخوض حروب التوازنات، وحروب الاستثمارات، رفض الحرب العلنية بين إيران قائدة هذه المليشيات، وبين حليف الغرب الإسرئيلي.

إحدى نتائج العملية الإيرانية واضحة: الاهتمام العالمي بغزّة والضفة، وبمصير الفلسطينيين، آخذ في التراجع، وبعد سجال أميركي بشأن وقف دعم إسرائيل بالأسلحة، تشعر أكثرية أعضاء مجلس النواب أنّ لديها ما يكفي من الوجاهة لإقرار أكبر مساعدات عسكرية إلى إسرائيل منذ «الطوفان»: أربعة عشر مليار دولار، كانت مجمدة، وسالتْ. إنقاذ إسرائيل على يد الحلفاء الغربيين جعلها تشعر بالقوّة، وانبعثت زعامة بنيامين نتنياهو من حضيض كان يتهدّده بالسقوط في أيّ انتخابات قادمة، فواصل مجازره في غزّة، وراح يصعّد في الضفة، ويطلق العنان لشركائه من اليمين المتوحّش، وغيرها مما هو في غير مصلحة الفلسطينيين. بل تضاعفت رغبته في اجتياح رفح لوضع نهاية للمعركة، وتحقيق وعد «سحق حماس». سمّت إيران ضربتها على إسرائيل «الوعد الصادق»، وهو الاسم نفسه الذي أعطاه حزب الله لحربه على إسرائيل في عام 2006. فهل الأمر مصادفة أم سهو أم ميعاد؟ ... في كلّ حال، رأى فريق الممانعة في المواجهة الإيرانية الإسرائيلية بداية النهاية لكلّ من الغرب وإسرائيل، والطريق الأقصر لتحريرنا من الاحتلال، فباركوا بُعد الرؤية الاستراتيجية الإيرانية، وهنأوا قيادة الجمهورية الإسلامية. في المقابل، لم تنتصر إسرائيل رغم إعلان نتنياهو: «اعترضنا... تصدّينا... معاً سننتصر»، بنبرة الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر: «جئت... رأيتُ... انتصرتُ». بالنسبة لملفّ الرهائن، على الأقلّ، جمّدت الضربة الإيرانية المفاوضات، وخلطت الأوراق، لا لمصلحة الرهائن الإسرائيليين ولا لمصلحة أهل غزّة.

> إنقاذ إسرائيل على يد الحلفاء الغربيين جعلها تشعر بالقوّة، وانبعثت زعامة نتنياهو من حضيض كان يتهدّده بالسقوط في أيّ انتخابات قادمة

كان واضحاً أنّ إيران لم ترَ في الضربة انتصاراً لفلسطين، وإنما تثبيتاً لقوّتها وهيبتها. ففي خطاب أمام حشد من مواطني بلدة دمغان، قال الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي «عملية 13 إبريل تعكس هيبتنا وإرادة شعبنا الحديدية ووحدتنا (...) وكل الشعب الإيراني، مهما كانت ميوله السياسية يتّفق على أنّ العملية ثبّتت قوّة الجمهورية الإسلامية وهيبتها». والمعلوم أيضاً، أنّ وكالات إيران الرسمية، ووزير خارجيتها، ومندوبها في الأمم المتحدة، جميعهم أعلنوا انتهاء الردّ الإيراني الذي لا علاقة له بـ«وحدة الساحات». هي مواقف تعبّر عن استثمار إيران للعملية في تصليب عودها الداخلي المهتز، بشوفينية تخدم نظامها في سحق المجتمع الإيراني. كانت الضربة الإيرانية على إسرائيل حدثاً مفصلياً، لمن يريد أن يقرأ إشاراتها. فقد صار للمرحلة الجديدة عنوان: الحرب الإيرانية الإسرائيلية، في موازاة الحرب الفلسطينية الإسرائيلية. يشعر مزيد من الفلسطينيين غير المؤدْلجين أنّهم وحيدون في هذا العالم، وبأنّ ليس عليهم الركون إلا لبعضهم. فهل يفعلون؟

(كاتبة لبنانية)

يحتفلون بالردّ الإيراني على إسرائيل، طهران، 19 إبريل 2024 (حسين بيريس/فرانس برس)

«المحدال» وتنظيف الإسطبلات في إسرائيل

زياد بركات

إذا كان ثمّة «بقرة مقدّسة» لدى الإسرائيليين، فهي الجيش. وربما كانت استقالة رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية (أمان)، أهارون حليفا، هي الأولى في أثناء حروب إسرائيل، وليس بعدها، أيّ أنّها حدثت قبل «تنظيف الإسطبلات»، وهو تعبير يُقصد منه عمليات المحاسبة التي تلي الحروب. ليلة السابع من أكتوبر (2023)، كان الجنرال حليفا يقضي إجازته الأسبوعية في إيلات. في نحو الثالثة فجراً، جاءه اتصال من شُعبته، وأُبلغ أنّ ثمّة إشارات بشأن هجوم وشيك من قطاع غزّة. وواضح أنّ الرجل ترك لكبار مساعديه تقييم مدى خطورة هذه الإشارات، وفي حكم المؤكّد أنّه لم يشارك في مداولات تلك الليلة. ووفقاً لما نُسب إليه، فإنّ الخُلاصة التي كان سيصل إليها، لو شارك في تلك المداولات، أنّ الأمر لا يعدو تدريباتٍ تقوم بها «حماس»، وأنّ البتّ في الأمر قد ينتظر حتى الصباح.

كان ذلك خطأً فادحاً، وإنْ لم يكن مستغرباً أو مستبعداً في التقييم، فقد استيقظ حليفا وبنيامين نتنياهو ويوآف غالانت، بل كامل النخبة الإسرائيلية في المستوييْن السياسي والعسكري، على ثاني أكبر الصدمات الوجودية في تاريخ إسرائيل برمّتها: «حماس» تكتسح مستوطنات غلاف غزّة، وتقتل المئات، ويعود رجالها بغنيمة ثمينة من الأسرى. إنّه «التقصير»، وهو فاضحٌ هذه المرّة، وشائنٌ في تاريخ «البقرة المقدسة» التي قامت إسرائيل وتوسعت بفضلها. «المحدال»، أو التقصير بالترجمة العربية، هو كتاب تُرجمت طبعته الأولى عن مؤسّسة الدراسات الفلسطينية (بيروت، 1974)، وهو من الكتب التي صدرت غداة حرب 6 أكتوبر (1973)، وفيها واجهت إسرائيل ما اعتبرته يائيل دايان، في حينه، خطر فقدان «البيت الثالث» لخراف بني إسرائيل الضالّة، فقد انقضّ الجيشان، المصري والسوري، على سيناء والجولان، بعد ملحمة عبور السويس. كانت أقدام جنرالات تل أبيب ترتجف وهم يروْن، للمرّة الأولى، أنّ احتمال الهزيمة، بل التهديد الوجودي، وارد بقوّة، رغم أنّ نشوة نصر العام 1967 استَبْعَدتْ هذا الاحتمال تماماً. فماذا حدث بالضبط؟ وأين الخلل؟ ومن يتحمّل المسؤولية؟ ... كانت هذه الأسئلة وسواها على طاولة غولدا مائير، والجنرال موشيه دايان، وباقي الفريق الوزاري.

«المحدال» كَتَبَه سبعة صحافيين إسرائيليين، كان بعضهم مراسلاً في الجبهة أو جنديَ احتياط، ويستعرض، إذا شئت، آليات التقصير، وسوء التقاط الإشارات وتقييمها، بل التعامل مع المعلومات على نحو يجعلها حمّالة أوجه، فلا يفيد منها ولا يتّخذ في ضوئها ما يلزم من إجراءات عملية، بل يستمر في التقليل من أهميتها، وربما إنكارها، فالمعلومات عن استعدادات الجيشيْن المصري والسوري لهجوم وشيك كانت موجودة، وكان بالإمكان سماعها في بعض خطابات الرئيس الراحل أنور السادات أو في تغطيات الصحف المصرية، لكنّها، وقد انطوت على عمليات تضليل مُعقّدة، أوحت إلى عسكر القلعة وجنرالاتها بعدم أهميتها، فكانت «لهم عيونٌ ولا يُبصرون»، بحسب أحد عناوين فصول الكتاب. وربما يعود ذلك إلى الغطرسة والاستعلاء، واستبعاد أن يمتلك الآخر عناصر القوّة، والأكثر أهمية؛ الإرادة للردّ عسكرياً بعد هزيمته المذلّة قبل ست سنوات فقط.

يستعرض أحد فصول الكتاب تجربة الغزو النازي للاتحاد السوفييتي في 1941، في مقارنة مضمرة بهجوم 6 أكتوبر (1973)، وكيف تعاملت القيادات في الاتحاد السوفييتي مع المعلومات والإشارات باستهانة أو سوء تقييم كارثي لها، كما فعلت القيادات الإسرائيلية. فقبل ذلك الغزو النازي كانت ألمانيا قد نشرت خمس فرق مدرّعة على طول نهر الفوغ، على حدود بولونيا مع الاتحاد السوفييتي، وكانت واشنطن ولندن وباريس تعرف أنّ ذلك مؤشّر على غزو وشيك، لكنّ موسكو لم تكن تجهله، بل تجاهلته وهوّنت من احتماله واقعياً. لم يستمع جوزيف ستالين ورجاله في موسكو إلى عشرات التقارير المُشفّرة لكبار جواسيسه، وعندما وصلت إليه برقية مُشفّرة من قائد الفرقة الموسيقية الحمراء (الاسم الرمزي لشبكة التجسّس السوفييتية في أوروبا) كان ردّه السخرية من المعلومة ومُرسلها، فكيف لم يشعر ليئو بولد تربر (قائد الفرقة) أنّهم نصبوا له مصيدة فوقع ضحيّة مؤامرة بريطانية دنيئة؟!

كانت برقية قائد الفرقة الموسيقية الحمراء، التي قلّل ستالين من أهميتها، تتضمّن كلّ شيء، حتى موعد الغزو الألماني. بعد 85 عاماً، تُكرّر إسرائيل فشل ستالين، بعد فشلها في حرب 6 أكتوبر، فهل ستفعلها «حماس»؟ وهل تستطيع؟ ... إنّها الغطرسة إذ تنقلب إلى هزيمة مُهينَة ما يجعل حليفا (أو سواه) يستقيل.

الإمبريالية الألمانية المنسية

محمد أحمد بنيس

نفضت حرب الإبادة، التي يشنّها الجيش الإسرائيلي على قطاع غزّة، الغبارَ عن كثير مما يحفل به التاريخ الاستعماري للغرب. ومع الدعم غير المسبوق الذي تقدّمه ألمانيا لدولة الاحتلال في هذه الحرب، يعود سجلُّها الاستعماري الأسود إلى دائرة اهتمام الرأي العام العربي بعد أن أعلنت ناميبيا رفضها، مطلع العام الجاري، دعمَ ألمانيا دولة الاحتلال، في الدعوى التي رفعتها ضدّها جنوب أفريقيا.

أسهمت عوامل تاريخية في استبعاد الشعوب العربية ألمانيا من مشاعر عدائها التي خصّت بها القوى الاستعمارية الكبرى الثلاث (بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة) عقوداً، ومنها التعاطف النسبي الذي حازته ألمانيا في المنطقة العربية، خصوصاً في المشرق إبّان الحرب العالمية الثانية، على اعتبار أنّها كانت تخوض الحرب ضدّ الحلفاء، وتحديداً بريطانيا وفرنسا، اللتين كانتا تستعمران معظم البلاد العربية. يُضاف إلى ذلك ما ساقته وثائقُ تاريخيةٌ عن حلفٍ عربي ألماني كان قيد التشكّل بعد زيارة مفتي فلسطين الأسبق الحاج أمين الحسيني ألمانيا، ولقائه مع أدولف هتلر (1941)، واتفاقهما على مناهضة الحركة الصهيونية، التي كانت قد قطعت أشواطاً على درب اغتصاب فلسطين.

ورغم أنّ ألمانيا ظلّت دائماً حليفة لدولة الاحتلال، بسبب ما تعتبره مسؤوليتها التاريخية والأخلاقية عما لحق باليهود خلال الحقبة النازية، وهو ما كان يحوز بعض «التفهُّم» من جانب الرأي العام العربي، إلا أنّ المقتلة المفتوحة في غزّة، منذ أكثر من ستة أشهر، قلبت المعادلة رأساً على عقب، بعد أن أصبحت ألمانيا أكثر إسرائيلية من إسرائيل. فلم يقتصر الأمرُ على مَدّها بالأسلحة والذخائر، بل تعدّى ذلك إلى ممارسة مختلف أشكال التضييق الدبلوماسي والإعلامي على الصوت الفلسطيني في ألمانيا. جديدها، كان وقف الحكومة الألمانية أشغال «مؤتمر فلسطين» في برلين قبل أكثر من أسبوع، في انصياع سافر ومُخْزٍ للإملاءات الصهيونية.

يعيد هذا التطرّف الألماني، في الانتصار للسردية الإسرائيلية، إلى الواجهة الجانبَ المُظلم من التاريخ الألماني (الحديث والمعاصر)، الذي نجحت ألمانيا في تغييبه قبل 7 أكتوبر (2023)، بسبب توازن سياستها الخارجية، وحرصها على تقديم نفسِها نموذجاً للدولة الأوروبية الاجتماعية والديمقراطية المُغرية لملايين المهاجرين واللاجئين. فصول هذا الجانب المُظلم من الإمبريالية الألمانية، لا تكاد الأجيال الجديدة في ألمانيا تعرف كثيراً عنها، ما أحدث وعياً مزيّفاً داخل قطاعات عريضة من المجتمع الألماني، مفادُه بأنّ ألمانيا، بوجهيها الديمقراطي والاجتماعي، ليس لديها ما تخجل منه، إذا ما استُثنِي مقطعُ الهولوكوست خلال الحقبة النازية.

لا تختلف هذه الإمبريالية، في وحشيّتها وتغوُّلها الاستعماري واستنزافها مقدرات البلدان التي احتلتها، عن الإمبرياليّتيْن البريطانية والفرنسية. لم تكن الحقبة النازية انحرافاً عن مسار التاريخ الألماني، بقدر ما كانت تعبيراً عن إخفاق الإمبريالية الألمانية في الحفاظ على مكاسبها الاستعمارية بعد أن خسرت في الحرب العالمية الأولى. واليوم، حين ترفع نيكاراغوا دعوى أمام محكمة العدل الدولية، تتّهم ألمانيا بمساعدة إسرائيل في ارتكاب إبادة جماعية في غزّة، فإنّ ذلك يشكّل مبعثاً لإعادة ألمانيا إلى مكانتها الطبيعية؛ دولةٌ تَجرّ خلفها إرثاً استعمارياً مُخجلاً.

العرب والغرب

كمال عبد اللطيف

لم يعُد بإمكاننا أن نفكّر في أحوالنا العامة، في السياسة والثقافة، في الحاضر والمستقبل العربيين، من دون استدعاء الآخر/ الغرب بصوَر وصيغ مختلفة. ولا يتعلق الأمر بمجرّد استحضار عارض أو تمثيلي فقط، بل إنه يشكّل جزءاً من بنية في النظر وفي التاريخ، تشير إلى حروب ومثاقفات، وأنماط من الصراع المادي والرمزي حصلت وتواصل حصولها بأسماء وتسميات جديدة. وهي تحمل اليوم سمات ومظاهر، كثير منها قديم، وبعضها متجاوز، ويحمل بعضها الآخر مواصفات جديدة مرتبطة بشبكة الصراعات المتواصلة، في بدايات العقد الثالث من الألفية الثالثة.

نستدعي هنا، ونحن نفكر في الراهن العربي، زوجاً مفهومياً تَشكّل في القرن التاسع عشر، وفي نهايته بالذات، حيث برزت المعالم الكبرى للمشروع الإمبريالي، مشروع انتقال المجتمع الرأسمالي الصناعي في الغرب الأوروبي، إلى مشروع غازٍ ونَاشرٍ لألويته ولغاته ومعارفه في العالم أجمع. بدأت حكاية الغرب الصاعد، في زمن أدرك فيه العرب جوانب من المسافات التي أصبحت تفصل بينهم وبين أوروبا. وقد نُعِتت المسافات بزوج مفهومي آخر معادل ومرادِف له، التأخر والتقدّم، وما يماثلهما من المرادفات التي نعثر عليها في أدبيات النهضة العربية، ونعثر عليها في مواقف النخب السياسية الغربية التي مهّدت الطريق للغرب الاستعماري وفتوحاته في الشرق وفي الجنوب. أعادتنا حرب إبادة الفلسطينيين التي تواصل إسرائيل القيام بها منذ سبعة أشهر، بتحالف مُعلَن مع الولايات المتحدة وبعض دول الغرب الأوروبي، إلى ثنائية العرب والغرب، رغم غياب العرب عن دواليب المعركة الجارية، بل وعجزهم عن القيام بأي فعل تجاه ما يقع أمامهم، أي اتجاه جرائم الحرب التي يمارسها الكيان الصهيوني تحت أعين وأسماع الجميع.. استعمل الزوج المفهومي في البداية، لمواجهة مواقف بعض النخب الغربية في كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، وهي نخب منحازة للسردية الصهيونية، وتمّ تعميمه بعد ذلك في الخطابات السياسية العربية، من طرف بعض المحافظين، لإحياء دعوات

> المواجهة اليوم مكشوفة عربٌ ضد العرب وضد فلسطين، وحراك إقليمي تشارك فيه كل من إيران وتركيا، وغربٌ يباشر مواجهة الجميع

رفض الغرب بإطلاق، والتغني بأمجاد تراث وماض لا صلة له بأحوال الحاضر وأعطابه وهزائمه وانقساماته، فعدنا إلى التشبث بأوهام كثيرٌ مِنْها يعزّز مآلات ما نحن عليه في الحاضر. وقد تَمّ ذلك في ضوء العودة الجديدة إلى توظيف الزوج غرب/ غرب، في أدبيات الصراع السياسي وحرب الإبادة التي أعلنها الكيان الاستعماري الصهيوني في فلسطين.

أتصوّر أن انخراط الحليف الغربي في البرّ وفي البحر وفي الجو، في مختلف فصول حرب الإبادة المتواصلة، يؤشر فعلاً على حرب قائمة يقودها طرفٌ واحد، يمارس اليوم التنكيل بالفلسطينيين، بعد أن ركّب معاهدات في التطبيع مع بعض دول الخليج والمغرب العربي، وبعد أن عطّل مسار التحوّلات التي كانت تعرفها بعض البلدان العربية في المغرب وفي المشرق، فأصبحنا مجدّداً أمام غرب مسلح بكل ما يسعفه بإعداد العدّة المناسبة لمشروع في الشرق الأوسط الجديد! مشروعه في محاصرة الطموح العربي في النهضة والتقدم.

لنعد إلى حرب استدراج بعض المفاهيم وتوظيفها لتعزيز جرائم الحرب المشتعلة في فلسطين منذ ما يزيد عن سبعة أشهر.. ولأن طوفان الأقصى نجح في إبراز كثير من أوجُه الاستعمار الصهيوني لفلسطين، كما نجح في منح قليل من الوقت للسردية الفلسطينية، سردية مقاومة المستعمر، ومقاومة الغرب الذي احتل قبله أرض فلسطين، ورتّب الوعود والمعاهدات القاضية بمنحه الأرض والدولة، فإنه لم يتردد في اختيار موقف الدفاع عنه ودعم آلته العسكرية، وتجريب كثير من الأسلحة التي كان يقصف بها العمارة والمدرسة والمستشفى، في حواضر ومخيمات غزة، ويقوم اليوم بمنع المنظمات الدولية، من تقديم بعض المساعدات في التغذية والتطبيب لبعض المصابين بأسلحته.. وقد بدا لنا ونحن نتابع يومياً حرباً عدوانية غير متكافئة، أن جنون الكيان الصهيوني بلغ درجاته القصوى، فقد أصبح سجين أوهام استأنس بها، فغمره الطوفان وأفقده التوازن، ولم يعد يتحكم هو ومن معه من الحلفاء، في تدبير آلة الحرب القائمة بكل جبروتها، دون تفكير في النتائج التي يمكن أن تترتّب عن جرائمه.. وضمن هذا الأفق، تابعت خيوط المعركة الإعلامية التي دشنتها القنوات التلفزيونية الفرنسية، وعكستها الصحافة المكتوبة والمجلات الأسبوعية، حيث فتحت نوافذ الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب لبرنار هنري ليفي، المُنَاصِر المطلق للسردية الصهيونية، صاحب الكتاب الجديد المعنون «عزلة إسرائيل» (2024). يستغرب المرء من شكل الحضور المتواتر للإعلامي والفيلسوف الفرنسي، في قنوات الإعلام الفرنسي منذ صدور كتابه أخيراً عن إسرائيل، فقد استضافته برامج الأخبار وبرامج الحوار عن الراهن الأوروبي والغربي، وبرامج الحوار المتعلقة بمعركة المقاومة الفلسطينية وما تلاها من حروب الإبادة المعلنة والتي يرتكبها الصهاينة، بغرض تهجير من تبقّوا من الفلسطينيين في قطاع غزّة والضفة الغربية. يستغرب المرء أيضاً من قدرات الرجل الهائلة على تحويل المثلث إلى دائرة، ومن قدراته على الكذب والمغالطة والحجاج الفارغ. وإذا كان عنوان كتابه عارياً يؤكّد عزلة إسرائيل الفعلية، رغم كل الحكايات والأباطيل التي صنعت طوال تاريخ غزوها المتواصل واستيطانها الذي لا يتوقف، وطيلة مساعيها الهادفة إلى مزيد من اختراق الأرض العربية، في محيط عربي مُرْهَق بكثير من مظاهر الشلل المُعَطّلة لحركته ولقدراته الإدراكية.. فإن بكائيته الصهيونية، دفعته إلى القول بأن حدث الطوفان غير مسبوق، وأن إسرائيل اليوم على أبواب الانهيار. ومن هنا دعوته الرامية إلى إسناد حرب الإبادة القائمة، لأنها حربٌ تقوم بها إسرائيل وحدها، رغم كل المساعدات والتعزيزات المادّية والحربية التي تلقتها وتتلقاها من الغرب، أن إسرائيل تحتاج اليوم إلى أكثر من ذلك، لأنها في نظره تبادر بصناعة تاريخ جديد، تقودُه وحدها، مُتوخّية تخليص الغرب من الإرهاب!

يمتلك صاحب «عزلة إسرائيل» قدرة عجيبة في الكذب المعلن، يتغنى بالسردية الصهيونية بعد أن يحولها إلى تاريخ فعلي، وهو يدرك أن قوة فعل المقاومة في طوفان الأقصى، تتمثل في استحضارها التاريخي للسردية الفلسطينية بعد أن جرى تغييبها خلال أزمنة التطبيع. ولا نعتقد أن المواجهة الحاصلة اليوم فوق أرض فلسطين تتعلق فقط بحرب إبادة الفلسطينيين، إنها حرب يقوم بها الغرب ويحمل أعلامها الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين وضد العرب... المواجهة اليوم مكشوفة عربٌ ضد العرب وضد فلسطين، وحراك إقليمي تشارك فيه كل من إيران وتركيا، وغربٌ يباشر مواجهة الجميع.

(أكاديمي مغربي)

معاداة الساميّة: قفص الأكاديميا الغربية

عبدالله هداري

عندما قرّر الفيلسوف كارل بوبر كتابة تحفته في الفلسفة السياسية «المجتمع المفتوح وأعداؤه» سنة 1939، كان قراره هذا تحت تأثير صدمة الحرب العالمية حينها. وعندما صدر الجزء الأول منه سنة 1948 كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وانتهت على ساحات المعركة، لتبدأ على ساحة التفكير اللامنتهي: بسؤال محيّر حول العدو الحقيقي للحضارة؟ والذي خلص بوبر إلى أنه متمثل في «المجتمع الشمولي» الذي يقدم الثورة على الحضارة.

أهم ميزة في المجتمع المفتوح انفتاحه النقدي، وتمرّده الدائم على قداسة الأنماط والأشخاص، فالسعي نحو مجتمع أفضل وأكثر حرية هو سعي غير مكتمل دوماً، يقتضي اليقظة الدائمة والإيمان بعدم الاكتمال. يعلم الجميع أن صورة إسرائيل بعد أحداث 7 أكتوبر، وحرب الإبادة التي شنتها على غزّة، بدأت داخل الأوساط الجامعية تشهد الكثير من التغيير، سواء عند الأوساط الطلابية، أو الأطر التدريسية. ونظراً إلى توسّع درجة التظاهر يوما بعد آخر، أخذت المسألة تفرض نفسها على اللوبي اليهودي في الأوساط الجامعية

> يمكن القول إن غزّة منحت مجتمع الأكاديميا الغربية تحدّياً جديداً يكسر ادّعاء الاكتمال والنضج

الأميركية كأزمة ومشكلة حقيقية، ودفعت أيضا المانحين داعمي إسرائيل للتدخل والضغط. ولا يمكن لهذه الحلقة أن تكتمل في ضغطها من دون حضور الكونغرس عبر السيناتورات المؤيدين لكل ما يصدُر عن إسرائيل والمؤمنين بقداسة وجودها دينيا. وقد تُرجم ذلك كله في الاستدعاء الذي كان قد وجه لكل من رئيسة جامعة بنسلفانيا، ليز ماغيل، ورئيسة جامعة هارفارد، كلودين جاي، للاستجواب من لجنة الكونغرس الأميركي. أما الورقة التي كانت وسيلة الضغط من الكونغرس فهي «معاداة الساميّة» وتهديد السلم والأمن اللذين يدعو إليهما المتظاهرون (بعبارة أصحاب هذا الادعاء) المساندون لحق الشعب الفلسطيني، وبعد ضغوط على السيدتين تقدّمتا باستقالتهما من منصبهما، وأدلت كل واحدة باعتذارها عما صدر منها من تصريحات.

جاءت هذه الاستقالات تحت ضغط الجالية اليهودية، وبعد موجة النقد الشديدة التي تعرّضت لها الرئيستان بعد تصريحاتهما، ثم الانتقاد الصريح للمانحين، مثلما حصل مع كلودين حينما وجه لها الملياردير المشهور بمساندته إسرائيل «بيل أكمان» في تصريح لا تخطئ العنصرية أي جهة من جهاته، عندما قال إن اختيار كلودين إنما كان بغرض تعزيز التنوع داخل المجتمع وليس لمؤهلاتها (تجدر الإشارة إلى أن كلودين من ذوي البشرة السوداء، وهي أول امرأة سوداء تترأس جامعة هارفارد).

لم تتوقف المسألة عند هذا الحد، فقد استدعت هذه اللجنة مجدّدا يوم 18 أبريل/ نيسان الجاري رئيسة جامعة كولومبيا مينوش شفيق، الأميركية ذات الأصول المصرية، بدافع الاستفسار عن الدعوة نفسها «معاداة الساميّة» والسماح بالتحريض على العنف داخل الحرم الجامعي، بعد اعتصام الطلبة المساند للفلسطينيين. وفي جامعة فاندربيلت في ناشفيل بولاية تينيستي جرى اعتقال الصحافي إيلي موتيكا مراسل موقع ناشفيل الذي كان يقوم بتغطية الاحتجاجات، إلى جانب توقيف مجموعة من الطلاب، الأمر الذي خلّف امتعاضا كبيرا من هيئة أساتذة الجامعة، والذي دفعهم إلى نشر رسالة مفتوحة لإدارة الجامعة وقع عليها ما يفوق 150 أستاذا، بشأن هذه التوقيفات التي تتنافى، حسب الرسالة، مع قيم الحرية والديمقراطية والأعراف الأكاديمية. أما في كاليفورنيا فقد شهدت مظاهرة تضامنية للطلاب مع الشعب الفلسطيني نشر كلية بومونت لما يفوق 25 مركبة من قوات مكافحة الشغب، وإزالتهم تعبيراً فنياً يرمز إلى جدار الفصل العنصري حسب تقرير «بريم تاكر» الذي نشر على موقع ذا إنترسبت الأميركي في 15 أبريل/ نيسان 2024، مشيرا أيضا إلى أنه قد جرى اعتقال 20 طالبا من المحتجين.

إذن، من الواضح أن الخيط الذي يجمع كل هذه الأحداث ليس التضامن مع الشعب الفلسطيني، أو قمع الاحتجاجات، وإنما أسلوب الهجوم المخاتل الذي تتعرّض له الحرية الأكاديمية في أميركا وغيرها من بقاع العالم الغربي، تذرّعا بحجة مغلوطة هي «معاداة السامة»، التي تشي بصفاقة مكارثية منقطعة النظير! وحسب تنبيه سابق، كان قد طرحه عزمي بشارة، فإن وسيلة الدفاع أمام هذه الحجّة غير ناجحة كما هو ظاهر للجميع، وغير ناجعة أيضا، بالأخص داخل المجتمع الأميركي، وينبغي بحسب عبارة بشارة قلب الأدوار، والانتقال من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقلب التهمة، بالتشهير بكل من يستعملها حجّة لتبرير مجازر الإبادة الإسرائيلية.

ويمكن القول إن غزّة (والقضية الفلسطينية) قد منحت مجتمع الأكاديميا الغربية تحدّيا جديدا يكسر ادّعاء الاكتمال والنضج، ويضع الباحث والجامعة على السواء في قلب أزمات العصر، مسائلا إياه عن دوره المفترض تجاه هذا الانزلاق القيمي والأخلاقي الذي يشهده العالم اليوم. وإن يكن من شيء، فإن التفكير في هوية المجتمع المفتوح بعد «7 أكتوبر» لن تخلو من محاذير الخلط بين الثورة والمقاومة، أو بين قيم المجتمع الحرّ ومقاومة الشعوب لتكون هي أيضا جزءا من هذا المجتمع.

(كاتب مغربي)

أين العرب من لحظة إعادة تشكيل المنطقة؟

غازي دحمان

هل يستطيع العرب ادّعاء أنهم كيانات فاعلة وحاضرة على مسرح السياسة الدولية، في وقت يُصار فيه صياغة المعادلات وقواعد الاشتباك ومنظومات العلاقات وتوزيع الحصص وتعيين مراكز النفوذ على أرض العرب، فيما هم غائبون تماما عن كل هذه الترتيبات وغير مرئيين في المعادلة الإقليمية الاستراتيجية؟ لقد تجاوز الصراع بين إيران وإسرائيل مستوى الوقاحة بدرجات، عبر استخدام سماء العرب وأرضهم ولحمهم الحي، ولم يعد أي منهما يكلّف نفسه حتى عناء شرح الأسباب التي تدفعه إلى التنكيل بعرب المشرق، وكأنهم أجزاء من تركة الإمبراطورية الفارسية، أو هامش على متن دولة صهيون، أو شعوب ينحصر دورها في الإخبار عن تعداد الذين ماتوا أو جرى دفنهم أحياء أو جرى تهجيرهم.

في إطار الصراع على النفوذ بين هاتين القوتين الإقليميتين يجري، وفي وضح النهار، قتل وتهجير أهل المشرق العربي، من غزة إلى حلب والموصل، وتتخذ طهران وتل أبيب فلسطين ولبنان وسورية والعراق مساحات آمنة ومصدات لامتصاص الضربات، فقد أثبتت الضربات المتبادلة

> بلدان المشرق، وخاصة فلسطين وسورية ولبنان، بلدان واقعة اقتصادياً وخربة وتحتاج أموالاً طائلة لتصبح دولاً وكيانات سياسية حقيقية

بينهما أنهما رحماء فيما بينهما وأشداء على شعوب المشرق.

وفي سياق إدارة هذا الصراع، برز دور أميركا واضحا، فقد عملت ضابط إيقاع من خلال إشرافها على هندسة الضربات بما يرضي الطرفين، وهذا يعني أن واشنطن لا تدير الصراع وحسب، بل ستكون ملزمة تطوير هذه الإدارة لتسليم كل طرفٍ حصّته من الأرض العربية أي أنها ترى أن مناطق نفوذ الطرفين في الجغرافيا العربية شرعية.

السؤال المطروح: أين الحضور العربي من المساعي المكشوفة لثلاثي أميركا وإسرائيل وإيران في تشكيل المنطقة وتقسيم مناطق النفوذ؟ الواقع أنه لا يمكن اعتبار الوضع العربي، في واقعه الحالي باصطفافاته وانقساماته، مؤهلا للحصول على دور ما في هذا التشكيل الجاري، ويبدو أن صناع القرار العرب قانعون بالمصائر التي تنتظر المنطقة وقانعون بحكمة ثلاثي أميركا وإيران وإسرائيل في إدارة هذه اللعبة؟

قد يكون السبب في ذلك قناعة اللاعب العربي بأن المنطقة المستهدفة بالتشكيل تنحصر في المشرق العربي، فلسطين ولبنان وسورية والعراق، وهذه المنطقة سقطت منذ زمن من حسابات العرب، وهي منطقة صراع إقليمي شرس تشترك فيه إضافة للقوى الثلاث المذكورة تركيا، وبالتالي فإن منازعة هذه القوى للحصول على دور في هذه المنطقة ستكون عملاً غير مجدٍ، فضلاً عن كونه غير واقعي بالنظر لموازين القوى المختلة وظروف اللاعبين.

وثمّة حسابات أخرى تندرج في هذا السياق، من نوع أن بلدان المشرق، وخاصة فلسطين وسورية ولبنان، بلدان واقعة اقتصاديا وخربة وتحتاج أموالا طائلة لتصبح دولا وكيانات سياسية حقيقية، فيما لا توجد مؤشّرات على أن مجتمعات هذه الدول ونخبها ستتوافق في يوم قريب على صيغ ناجحة لإدارة بلدانها وإخراجها من المَأزق التي وضعت دولها بها، أو وُضعت هذه البلدان بها.

صحيح أن هذه قراءة واقعية للنتائج الحاصلة، لكن السؤال هو كيف وصلت الأمور إلى هذه الخلاصة؟ ألم يكن ذلك عبر هندسة وصبر استراتيجي طويل المدى؟ ألم تخضع هذه البلدان لسياسات تخريبية مقصودة ومدبرة، مثل قيام إسرائيل بتحطيم كل إمكانية لإقامة دولة فلسطينية عبر التدمير الممنهج للجغرافيا الفلسطينية وقتل النخب، ألم تعمل إيران تدميرا وتحطيما بسورية، دولة وشعبا، حتى توصلها إلى هذا المكان وتصبح بلا مستقبل ولا أمل؟ دائما كان الفراغ العربي الخلفية التي وقفت وراء انهيار مجتمعات المنطقة، مثلما كانت الخلفية التي حفزت اللاعبين الخارجيين على القيام بأدوار تخريبية وصلت إلى حد استباحة شعوب المنطقة وجغرافيتها، فلا دولة قائدة يمكن أن يحسب لها حساب، ولا تكتل عربي ناجح قادر على فرض خطوط حمر وسياسات ردع تجاه اللاعبين الخارجيين، زاد ذلك كله من حراجة الوضع الإستراتيجي للعالم العربي، ودفع الفاعلين فيه إلى الانكفاء والبحث عن الخيارات التي تضمن السلامة ولا شيء آخر دونها.

لنكن واقعيين، لا الصراع في المشرق العربي سيبقى هناك ولن يتمدد صوب بلدان أخرى، وتحديدا دول الخليج ومصر، ولا الأطراف المتصارعة ستتوقف عند حدود المشرق العربي، فالجائزة أصلا تقع خلف هذه الحدود، وللحصول عليها لا بد من إقامة مناطق ارتكاز وانطلاق صوب بلدان الجائزة، وهذا الأمر يحتم على العرب، مصر ودول الخليج، الانخراط بقوة في صناعة معادلة ردع عربية دون الخضوع لأميركا واشتراطاتها ووعودها، ليس من أجل بلدان المشرق العربي، ولكن حتى لا تتكرس معادلة أن لإسرائيل وإيران، وربما تركيا وإثيوبيا، الحق في استباحة المنطقة العربية كلها، تحت ذريعة أنه يحقّ للقوي السيطرة على مساحة أمان ومناطق نفوذ طالما لا يؤثر على مصالح المدير الأميركي.

(كاتب فلسطيني)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads